

ال خليفة الشرعي



نادر الحمّامي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

الخليفة الشرعي*

* يمثل هذا البحث فصلا من كتاب "صورة الصحابي في كتب الحديث" الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، والمركز الثقافي العربي، 2014.

الملخص:

بُني هذا الفصل على مقالة مهمّة، مفادها أنّ تجربة الخلفاء الأوائل مثّلت مصدر استلهام للتنظير السياسي الذي سيبدأ في القرن الخامس الهجري مع الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية والولايات الدينية". فضلاً عن ذلك بيّن المؤلف مستويات تمثّل المسلمين لتجربة الخلافة الراشدة تعويلاً على المصادر السنيّة أساساً (تحديداً باب فضائل الصحابة في مجاميع الحديث النبوي، وفي طليعتهم الخلفاء الأربعة الأوائل). لذلك تطرّق نادر الحمّامي في هذا الفصل إلى "صورة الصحابي" من خلال تجربة أبي بكر المعبرة عن أنموذج "الخلافة الشرعي"، إذ فكّك المؤلف مكونات تلك الصورة التي أسست لصورة مثاليّة للخليفة. ومن ثمّ عرض لممارسة أبي بكر للسلطة السياسيّة من خلال قُطبيّ "المعارضة" و"الشرعيّة" في حكمه السياسي. ثمّ نظر في مستندات الشرعيّة مثل: السابقة في الإسلام والتلقيب بالصدّيق والقرشيّة والرفقة في الهجرة. وقد حرص المؤلف على أن يقرأ مختلف الأخبار والروايات الدائرة على هذه المسائل قراءة تفهميّة نقدية بعيداً عن تمجيد التاريخ الإسلامي أو التحامل عليه.

"قال بعض العلماء: لو قال قائل: إنّ جميع الصحابة ما عدا أبا بكر ليست لهم صحبة لم يكفر، ولو قال: إنّ أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله كافر، فإنّ القرآن العزيز نطق أنّه صاحبه".

ابن الأثير، أسد الغابة، م 3، ص 209

حرص القدامى على جمع ما اعتبروه من الدلائل المنذرة بموت النبيّ، فروى ابن إسحاق "عن أبي مويهبة، مولى رسول الله، قال: بعثني رسول الله من جوف الليل فقال: يا أبا مويهبة إنّني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شرّ من الأولى، ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا مويهبة إنّني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثمّ الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربّي والجنة، قال: فقلت: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثمّ الجنة. قال: لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربّي والجنة، ثمّ استغفر لأهل البقيع ثم انصرف. فبدأ برسول الله وجعه الذي قبضه الله فيه"¹. واعتبرت بعض آيات القرآن إنذاراً بموت النبيّ، فقد روي "عن ابن عباس قال: لما نزلت: [إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ]² قال رسول الله: نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي، كَأَنِّي مقبوض في تلك السنة"³.

ولكن رغم مثل هذه الأخبار المنذرة بموت النبيّ⁴ فإنّه يمكن أن نعتبر أنّ موت النبيّ مثل مفاجأة كبيرة بالنسبة إلى الصحابة، وما لفت الانتباه حقاً أنّ المصادر لم تحفظ لنا الكثير من مظاهر التفجّع التي أعقبت موت النبيّ، والغياب البارز كان غياب عليّ والعبّاس وفاطمة، بل إنّ الأخبار تسعى إلى تغييبهم. قال ابن العربي في معرض حديثه عن وفاة النبيّ: "فأمّا عليّ فاستخفى في بيته مع فاطمة"⁵. ودلّت أخبار أخرى على نوع من سذاجة عليّ السياسيّة، وهو ما بدا واضحاً عند محاورته للعبّاس قبيل موت النبيّ، فقد روي "أنّ عليّاً بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفيّ فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح

¹ - ابن هشام، السيرة، م 2، ج 4، ص 173

² - النصر 1/110

³ - مسند ابن حنبل، مسند بني هاشم، الحديث 1777. وانظر أخباراً أخرى في السياق نفسه في: الطبري، التفسير، ج 30، ص ص 376-379

⁴ - راجع مثلاً ما يورده ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 223 وما بعدها من "الآيات والأحاديث المنذرة بوفاة رسول الله، وكيف ابتدئ رسول الله بمرضه الذي مات فيه".

⁵ - ابن العربي، العواصم من القواصم، ص 54

رسول الله؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاثٍ عبدُ العصا، وإنّي والله لأرى رسول الله سوف يتوفّى من وجعه هذا، إنّي لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا؟ فقال عليّ: إنّنا والله لئن سألناها رسول الله فمَنَعَنَاها لا يعطيناها الناس بعده، وإنّي والله لا أسألها رسول الله⁶.

إنّ أهمّ ما حفظته لنا المصادر من مواقف الصحابة مباشرة إثر وفاة النبيّ يتلخّص في موقفين: موقف عمر وموقف أبي بكر، وهما موقفان متناقضان، ففي الوقت الذي كان فيه عمر يتوعّد كلّ من يزعم أنّ محمّداً قد مات، مؤكّداً أنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى من قبل، وقف أبو بكر موقف الحكيم المتّزن مذكّراً الناس بما نسوه من القرآن في مصيبتهم، فقد أقبل الناس على أبي بكر وتركوا عمر فقال أبو بكر: "فمن كان منكم يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت، قال الله تعالى: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ]⁷. والله لكأنّ الناس لم يكونوا يعلمون أنّ الله أنزلها حتّى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، فتلقّاها منه الناس فما يُسمع بشر إلا يتلوها"⁸.

كأنّ الناس أصبحوا يتلقّون القرآن بعد نبيّهم من أبي بكر، وكان ذلك ناتجاً عن الحكمة التي تحلّى بها في أخطر ما واجهه المسلمون إلى ذلك الوقت، وهو ما جعله يكتسب "الشرعيّة اللازمة فيقوم في الناس خليفة لمحمّد"⁹. غير أنّ هذه الشرعيّة احتاجت إلى أكثر من موقف أبي بكر عند وفاة النبيّ، فطفق المسلمون يلبسون أبا بكر من الفضائل ما يجعله يكون الخليفة الوحيد للنبيّ، فكانت تلك الفضائل مشكّلة لصورة خليفة النبيّ الشرعيّ.

⁶- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبيّ صلى الله عليه وسلم ووفاته.

⁷- آل عمران 144/3

⁸- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه.

⁹- وحيد السعفي، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص 666

1. أبو بكر بين معارضيّه وشرعيّة خلافته

لقد كانت شرعيّة خلافة أبي بكر للنبيّ محلّ جدل بين القدامى وموضوع بحث لدى المحدثين، ولو أرجأنا جدل القدامى ونظرنا فيما أدلت به الدراسات في هذا الموضوع للاحظنا أنّ أغلب هذه الدراسات¹⁰ يمكن حصرها في اتجاهين كبيرين: الاتجاه الأوّل ينزع منزعاً تاريخياً يسعى فيه أصحابه إلى مقارنة النصوص وبيان تضاربها بحثاً عن الصّحة التاريخيّة، أمّا الاتجاه الثاني فهو الباحث في المنظومة السياسيّة الإسلاميّة التي قد يكون البحث فيها مستحيلاً دون الرجوع إلى ما حدث بعد وفاة النبيّ واستخلاف أبي بكر، ومن ثمّ تعاقب الخلفاء بعده.

ولئن كنّا لا ننفي إفادتنا من هذه الدراسات التي تبقى هامّة في مجالها، فإنّ ما نروم البحث فيه لا يتعلّق بالصّحة التاريخيّة، كما أنّنا لا نبحث فيما سيّسمّى لاحقاً بالأحكام السلطانيّة. إنّ بحثنا يتعلّق بالصورة التي شكّلها الضمير الإسلاميّ لخليفة النبيّ، وهي صورة لا شكّ بعديّة، لا من جهة وضع الروايات والأخبار المؤكّدة لفضل أبي بكر فحسب، وهو أمر مطّرد، بل أيضاً من جهة البعد التاريخيّ بين الأقوال والأحداث المشيدة بأبي بكر وزمن تدوينها، وهو ما لم يعد بالإمكان اليوم نفيه أو تجاهله عند كلّ دراسة للفترة الإسلاميّة المبكّرة.

إنّ صورة أبي بكر كما تمثّلها المسلمون ترمي إلى غاية أساسيّة وهي إضفاء الشرعيّة على خلافة النبيّ. ولا بدّ من التأكيد قبل التعرّض إلى ملامح هذه الصورة وأسباب إنتاجها وآليات تشكيلها، أنّ الشرعيّة تمثّل الأساس الأوّل لقيام دولة أو تيّار فكريّ أو غير ذلك، غير أنّ مفهوم الشرعيّة يطرح العديد من الإشكاليّات، أهمّها في نظرنا التباسه بالناحية الدينيّة. إنّ ما يلفت الانتباه أنّ لفظ الشرعيّة، المستعمل في المجال السياسيّ، يعود إلى المادّة نفسها التي تشنّق منها ألفاظ من قبيل الشرع أو الشريعة، وهما مفهومان يحيلان على الجانب الدينيّ، وهذا الأمر له دلالة بالغة الأهميّة، فالسائس لا بدّ له من غطاء دينيّ ليحظى حكمه بالقبول في الاجتماع، لأنّ هذا الغطاء الدينيّ يجعل من الخليفة أو الحاكم متمكّناً من أمرين؛ هما النفوذ والسلطة في الآن نفسه، لذلك فإنّ كلّ نظام سواء كان سياسياً أو أخلاقياً أو غير ذلك يتحتّم عليه التكلّم باسم من هو متعالٍ، بقطع النظر عن هذا المتعالي أكان القانون أو الإله أو المصلحة أو غيرها.

¹⁰ - يجب التنبيه إلى أنّنا نعتني بالدراسات ذات الطابع العلمي، دون المؤلّفات التمجيدية التي تقتصر على ترديد ما جاء في مصنّفات القدامى ولا تضيف إليها شيئاً.

إنّ هذه الملاحظة لا تؤدّي مطلقاً إلى الإقرار بأنّ المسلمين لا يميّزون بين مفهومي السلطة والنفوذ¹¹ بل إنّ الأمر يبدو عكس ذلك تماماً، وربّما كان هذا التمييز هو السبب الأساسي لاستخلاف أبي بكر على حساب عليّ أو العباس، فلو استخلف أحدهما فإنّه "يتمّ في هذه الحالة الجمع في شخص الممارس للحكم بين السلطة الرمزيّة المتمثّلة في القرابة من النبيّ والسلطة الزمنيّة التي هي محلّ النزاع"¹².

لقد تجلّى هذا الوعي فعلاً في اجتماع السقيفة الذي انتهى باستخلاف أبي بكر، وقد كان هذا الاستخلاف بعيداً عن الإجماع، وبرز ذلك في العديد من الأحداث، من بينها معارضة سعد بن عبادّة وتخلف عليّ والعبّاس وغيرهما عن البيعة، وبرز كذلك في معارضة عدّة قبائل وقعت محاربتها بتهمة الردّة عن الإسلام.

لئن أكّد الكثير من أهل السنّة على مقولة الإجماع فيما يتعلّق ببيعة أبي بكر¹³ فإنّ أخباراً عديدة تبين أنّ ما حدث في سقيفة بني ساعدة كان عنيفاً، فقد ذكرت مصادر سنّية تخلف عدد من الصحابة عن البيعة ومالوا مع عليّ واحتموا به في داره، فذكر ابن قتيبة أنّ "أبا بكر رضي الله عنه تفقّد قوماً تخلفوا عن بيعته عند عليّ كرم الله وجهه فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم في دار عليّ فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها. فقليل له: يا أبا حفص إنّ فيها فاطمة فقال: وإنّ"¹⁴. وحرصت المصادر الشيعيّة على ذكر أسماء من تخلف عن البيعة تأكيداً لأحقّيّة عليّ وتشكيكاً في صحّة البيعة، فيقول اليعقوبي: "وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع عليّ بن أبي طالب، منهم العبّاس بن عبد المطلب والفضل بن العبّاس والزبير بن العوّام وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبو ذرّ الغفاري وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأبيّ بن كعب"¹⁵. ويخبر المسعودي أنّ عليّاً شعر باغتصاب حقّه في خلافة النبيّ مع اعتراف أبي بكر نفسه له بذلك الحقّ، ولكنّها شؤون السياسة وأحكامها والخوف من الفتنة، فيذكر أنّه "لما بويع أبو بكر في يوم السقيفة وجُدّدت له البيعة على العامّة يوم الثلاثاء خرج

¹¹ - يذهب روزنتال (Rosenthal) إلى أنّ المسلمين لا يميّزون بين السلطة والنفوذ، انظر:

Political Thought in Medieval Islam, p. 22.

¹² - عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ص 103

¹³ - يجب التأكيد أنّ مقولة الإجماع فيما يتعلّق ببيعة الخلافة وفي غيرها لا تتعلّق بكلّ المسلمين كما يفهم البعض، بل بمن يسمّون أهل الحلّ والعقد، كما أنّ الإجماع لم يعتبر شرطاً في عقد الإمامة، وهو ما يكشف عنه قول إمام الحرمين الجويني: "اعلموا أنّه لا يشترط في عقد الإمامة الإجماع، بل تنعقد الإمامة وإن لم تجمع الأمة على عقدها، والدليل عليه أنّ الإمامة لما عقدت لأبي بكر ابتدر لإمضاء أحكام المسلمين، ولم يتأنّ لانتشار الأخبار إلى من نأى من الصحابة في الأقطار، ولم ينكر عليه منكر ولم يحمله على التريث حامل"، الإرشاد، ص 424

¹⁴ - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 1، ص 15

¹⁵ - تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 124

عليّ فقال: أفتّ علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقنا. فقال أبو بكر: بلى ولكنني خشيت الفتنة¹⁶. وتوكد المصادر أيضاً أنّ عليّاً استشعر مؤامرة بين أبي بكر وعمر، فروي أنّ عليّاً حاجّ أبا بكر بقرابته من النبيّ وأنه بذلك أحقّ بخلافته، فقال له عمر: إنك لست متروكاً حتّى تبائع، فقال له عليّ: أحلب حلباً لك شطره وشدّ له اليوم يردده عليك غداً¹⁷، ولعلّ في القول صحّة فقد استخلف أبو بكر عمر قبل وفاته. وتتدعم فكرة المؤامرة بما روي "عن مالك بن دينار قال: توفي رسول الله وأبو سفيان غائب [...] فلما انصرف لقي رجلاً في طريقه مقبلاً من المدينة فقال له: مات محمد؟ قال: نعم. قال: فمن قام مقامه؟ قال: أبو بكر. قال أبو سفيان: فما فعل المستضعفان عليّ والعبّاس؟ قال: جالسين. قال: أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن أعقابهما، ثم قال: إنّي أرى غيرة لا يطفئها إلا دم، فلما قدم المدينة جعل يطوف في أزقتها ويقول:

بني هاشم لا تطمع الناس فيكم ولا سيّما تيم بن مرّة أو عدي¹⁸
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن عليّ

فقال عمر لأبي بكر: إنّ هذا قد قدم وهو فاعل شرّاً وقد كان النبيّ يستألفه على الإسلام فدع له ما بيده من الصدقة ففعل، فرضي أبو سفيان وبايعه¹⁹. ولئن كان ابن عبد ربّه قد أورد هذا الخبر أساساً استنقاصاً من أبي سفيان، وبالتالي من الأمويين، فهو يؤكّد أنّ أبا سفيان من المؤلّفة قلوبهم ومن الممكن شراء ذمّته بالعطاء الذي منعه عمر زمن خلافته، لئن كانت هذه غاية الخبر فإنّه يكشف شكلاً من أشكال المعارضة التي قامت ضدّ أبي بكر وعمر، وتبين نوع المؤامرة التي قد تكون حيكت ضدّ عليّ والعبّاس لاستبعادهما من الخلافة. ونقف على أخبار أخرى ذات وظيفتين: وظيفة الاستنقاص من الأمويين، ووظيفة الإغلاء من شأن أبي بكر على لسان أبرز منافسيه، وهو عليّ. ومن ذلك ما رواه الحاكم النيسابوري: "جاء أبو سفيان بن حرب إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ما بال هذا الأمر في أقلّ قريش قلّة وأذلّها ذلّة؟ يعني أبا بكر، والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فقال عليّ: لطالما عادت الإسلام وأهله يا أبا سفيان، إنّنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً²⁰. وبذلك يصبح عليّ المعارض لخلافة أبي بكر مدافعاً عنه، فتحقّق الأخبار السنّية وظيفتها الجداليّة مع الشيعة المؤكّدين لأحقّيّة عليّ في الخلافة.

¹⁶ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 42

¹⁷ - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 1، ص 14

¹⁸ - تيم بن مرّة عشيرة أبي بكر، وعديّ عشيرة عمر بن الخطّاب.

¹⁹ - ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج 4، ص 257

²⁰ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 83

أما المعارضة الثانية القويّة فمثّلها سعد بن عبادَة الذي رفض بيعَة أبي بكر وبيعة عمر من بعده، فبعد الذي حدث في سقيفة بني ساعدة "بعث إليه أبو بكر رضي الله عنه أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: أما والله حتّى أرميكم بكلّ سهم في كنانتي من نبل وأخضّب منكم سناني ورمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي، ولا والله لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتّى أعرض على ربّي وأعلم حسابي"²¹. وفعلاً التقى الجنّ مع الإنس في المنظور السنّي لقتل سعد بن عبادَة، فقد قال ابن سيرين: "بينما سعد يبول قائماً، إذ أتكا فمات، قتلته الجنّ"²². واشتهرت مثل هذه الروايات درءاً لما شجر بين الصحابة وقتل بعضهم بعضاً لتهمّش روايات من قبيل ما روي عن الكلبي: "بعث عمر رجلاً إلى الشام فقال ادعه [يعني سعد بن عبادَة] إلى البيعة واحمل له بكلّ ما قدرت عليه، فإن أبي فاستعن الله عليه. فقدم الرجل الشام فلقه بحوران في حائط فدعاه إلى البيعة فقال: لا أبايع قرشياً أبداً، قال: فإنّي أقاتلك، قال: وإن قاتلتني، قال: أفخرج أنت ممّا دخلت فيه الأمّة؟ قال: أما من البيعة فأنا خارج، فرماه بسهم فقتله"²³.

وبرزت معارضة القبائل لبيعة أبي بكر فيما سيعرف تاريخياً بحروب الردّة، وهي حروب يطغى فيها السياسيّ على الدينيّ، فمن حاربهم أبو بكر لم يخرجوا عن الديانة، بل إنهم رفضوا دفع الزكاة إلى أبي بكر لأنهم لم يعترفوا به خليفة للمسلمين، وهو أمر قرّره عليّ عبد الرازق منذ عشرينيّات القرن العشرين، ولكنّه لم يلق الرواج. لقد أكّد عبد الرازق أنّ من الخارجين على أبي بكر مرتدّين، ولكن "كان فيهم من بقي على إسلامه، ولكنّه رفض أن ينضمّ إلى وحدة أبي بكر لسبب ما من غير أن يرى في ذلك حرجاً عليه ولا غضاضة في دينه. وما كان هؤلاء من غير شكّ مرتدّين وما كانت محاربتهم لتكون باسم الدّين، فإن كان ولا بدّ من حربهم فإنّما هي السياسة والدفاع عن وحدة العرب والذود عن دولتهم"²⁴.

سعى أبو بكر بهذه الحروب إلى إضفاء الشرعيّة على خلافته لأنّه وضع نفسه في مقام النّبّيّ، وهو ما يكشفه خبر جداله مع عمر حين عزم على محاربة مانعي الزكاة: "والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدّونه إلى

²¹ - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 1، ص 13

²² - ابن الأثير، أسد الغابة، م 1، ص 224

²³ - ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج 4، ص 260

²⁴ - عليّ عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، ص 107

رسول الله لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطّاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عزّ وجلّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنّه الحقّ"²⁵.

مرّة أخرى تبرز حكمة أبي بكر في موازنة مع عمر، فيكون أبو بكر حليماً في مواقف وعنيفاً في مواقف أخرى تستوجب العنف. ولئن كان الأمر حسب أبي بكر يستدعي القوة ضدّ مانعي الزكاة، وهو أمر اختلف فيه مع عمر، فإنّ الصحابيّن اختلفا في مواطن عديدة، وكان أبو بكر في أغلب الأحيان على صواب، وقد برز ذلك بالخصوص في صلح الحديبية، فقد كان عمر محتاراً من موقف النبيّ وهو يفاوض سهيل بن عمرو، ورأى في موقف النبيّ وأبي بكر استنقاصاً من الدّين، فقد روى عمر بن الخطّاب أنّه أتى النبيّ بعد إبرام الصلح مع قريش قائلاً: "ألمست نبيّ الله حقّاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعط الدنيّة في ديننا إذن؟ قال: إنّ رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري"، وربّما لم يقتنع عمر بكلام النبيّ، فأقبل على أبي بكر بالأسئلة نفسها، وكانت الإجابات نفسها²⁶. ولئن أكّد هذا الخبر أنّ الأمر يتعلّق بالامتثال لأمر الله، فإنّ أخباراً أخرى تؤكد أنّ النبيّ استشار أصحابه، فأشار عليه أبو بكر بالموادعة، فقد روي عن النبيّ قوله: "أشيروا أيّها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذريّ هؤلاء الذين يريدون أن يصدّونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عزّ وجلّ قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين. قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجّه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله"²⁷. وعلى أيّ حال لم يكن عمر يتوقّع أنّ هذا الصلح سيكون السبب المباشر لفتح مكّة. إنّ خبر الصلح يخفي فيما يخفيه مفاضلة بين أبي بكر وعمر، وهي مفاضلة تأتي قبيل الفتح، قبيل موت النبيّ، فتطابقت أجوبة أبي بكر مع أجوبة النبيّ عن تساؤلات عمر.

لم تكف حكمة أبي بكر ومواقفه الثابتة لجعل خلافته للنبيّ في مأمن من المطاعن، فقد لقيت أشكالا عديدة من المعارضة، باعتبار أنّ النبيّ لم يعيّن خليفة له، في حين أنّ الشيعة يقولون بالنصّ على خلافة عليّ، فما كان من أهل السنّة إلا تشكيل صورة لأبي بكر تجعله خليفة النبيّ الشرعيّ، ولئن كان السنّة يؤكّدون أنّ الخلافة كانت بالاختيار لا بالنصّ، فإنّ صورة أبي بكر كما ترسّخت في الضمير الإسلاميّ تقترب من القول بالنصّ على خلافته، وهو ما يكشف عنه قول الجويني مثلاً: "فإنّ تعسّف متعسّف وادّعى التواتر والعلم

²⁵- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا لا إله إلا الله محمّد رسول الله.

²⁶- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط.

²⁷- المصدر نفسه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

الضروريّ بالنصّ على عليّ رضي الله عنه، فذلك بُهتٌ، وهو دأب الروافض، فيجب أن يقابلوا على الفور بنقيض دعواهم في النصّ على أبي بكر رضي الله عنه²⁸. غير أنّه لم يكن بإمكان أهل السنّة التأكيد أنّ النبيّ نصّ على خلافة أبي بكر باعتبار أنّ روايات كثيرة تتعارض مع ذلك، أهمّها ما جاء على لسان أبي بكر نفسه مناظراً حباب بن المنذر في اجتماع السقيفة: "ولكنّا الأُمراء وأنتم الوزراء [...] فبايعوا عمر أو أبا عبيدة"²⁹، ولو وجد نصّ على الخلافة لما اقترح أبو بكر عمر ولا أبا عبيدة. وفي غياب هذا النصّ قامت الصورة مقام النصّ على خلافة أبي بكر.

2. مستندات الشرعيّة

أ. السابقة في الإسلام

عندما ننظر في الكتب الخاصّة بفضائل الصحابة في مجاميع الحديث يلفت انتباهنا ترتيب متكرّر يبدأ بفضائل أبي بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ عليّ، وبعد هؤلاء يكون الاختلاف في من ستثبت فضائله، وهذا الترتيب كما هو واضح منسجم مع ما حصل تاريخياً، أي إنّهُ موافق لترتيب الخلفاء الأربعة الأوائل وبذلك يكون له وظيفة سياسيّة أساسها تقديم الأفضل على المفضول، فكان أبو بكر أفضل الخلفاء وأفضل أصحاب النبيّ جملة. إنّ هذه الأفضليّة التي حرص المسلمون على إبرازها تتأسّس على عدّة محاور أولها مسألة السابقة في الإسلام، وهي من المسائل التي تناظر فيها المسلمون من منطلقات مذهبيّة كلاميّة.

لئن لم يكن هناك ما يمنع أن يكون أبو بكر أوّل من أسلم، فإنّه لا ينبغي إهمال روايات أخرى تؤكّد عكس ذلك، ولكنّ الأكيد أنّ اعتبار أبي بكر أوّل المسلمين وظّف توظيفاً سياسياً للتأكيد أنّه أحقّ الصحابة بخلافة النبيّ. وقد جمع الطبري جملة من الأخبار بعضها يؤكّد أنّ أبا بكر هو أوّل من أسلم، وبعضها يؤكّد أنّ عليّاً كان أوّل المسلمين، وبعضها زيد بن حارثة، وروي "عن محمّد بن سعد قال: قلت لأبي: أكان أبو بكر أوّلكم إسلاماً؟ فقال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين"³⁰. وروي عن عليّ قوله: "إنّي عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب، صلّيت قبل الناس بسبع سنين"³¹. وروي عن الواقدي: "واجتمع أصحابنا

²⁸ - الجويني، الإرشاد، ص 419

²⁹ - صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبيّ، باب قول النبيّ: لو كنت متّخذاً خليلاً.

³⁰ - راجع هذه الأخبار في: الطبري، التاريخ، م 1، ص 332

³¹ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 120، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 26

على أنّ علياً أسلم بعدما تنبأ رسول الله بسنة³². وأمام كلّ هذه الروايات سعى المتأخرون إلى التوفيق بينها، فيقول ابن كثير: "فكان أول من بادر إلى التصديق من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، ومن الغلمان علي بن أبي طالب ومن النساء خديجة بنت خويلد زوجته عليه السلام ومن الموالي مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنهم وأرضاهم"³³. والملاحظ أنّ هذه النزعة التوفيقية لم تتغير شيئاً من أحقية أبي بكر في خلافة النبي فلا الحدث ولا المرأة ولا المولى بإمكانهم أن يكونوا خلفاء، فلم يبق إلا أبو بكر الرجل الحرّ.

ولكنّ مثل هذه الروايات قد تكون مدخلاً للقول إنّ علياً لم يعبد الأصنام قطّ، وتربّى في حجر النبي فيكون هو الأحقّ بخلافته، ولذلك نقف على روايات تقطع الطريق على القائلين بذلك، فيروى عن عمّار بن ياسر قوله: "رأيت رسول الله وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر"³⁴، فلا ذكر إذن لسابقة عليّ، وبذلك لا ينافس أبا بكر في خلافته للنبي اعتماداً على سابقته في الإسلام.

هذه السابقة في الإسلام كانت في حاجة إلى تدعيم، وجاء ذلك بما رواه أبو بكر عن نفسه من أنّ صفته موجودة في الكتب، فقد روي "عن عبد الله بن مسعود قال: قال أبو بكر الصديق إنّّه خرج إلى اليمن قبل أن يبعث النبي فنزلت³⁵ على شيخ من الأزديّ قد قرأ الكتب، وعلم من علم الناس كثيراً، فلما رأيته قال: أحسبك حرّميّاً³⁶، قال أبو بكر: نعم، أنا من أهل الحرم، قال: أحسبك قرشيّاً، قال: قلت: نعم أنا من قريش، قال: وأحسبك تيميّاً، قال: قلت: نعم أنا من تيم بن مرّة، أنا عبد الله بن عثمان من ولد كعب بن سعد بن تيم بن مرّة، قال: بقيت لي فيك واحدة، قلت: ما هي؟ قال: تكشف عن بطنك. قلت: لا أفعل أو تخبرني لم ذاك؟ قال: أجد في العلم الصحيح الصادق أنّ نبيّاً يبعث في الحرم، يعاون على أمره فتى وكهل، أمّا الفتى فخواص غمرات ودفاع معضلات، وأمّا الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة، وعلى فخذيه اليسرى علامة وما عليك أن تريني ما سألتك؟ فقد تكاملت لي فيك الصفة إلا ما خفي عليّ. قال أبو بكر: فكشفت له عن بطني فرأى شامة سوداء فوق

³² - الطبري، التاريخ، م 1، ص 331

³³ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 18

³⁴ - صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه

³⁵ - ذا في الخبر، بدايته بضمير الغائب، ويتواصل بضمير المتكلم.

³⁶ - الحرّميّ: بكسر الحاء وسكون الراء، هو المنسوب إلى الحرّ، "وهو من المعدول الذي يأتي على غير قياس"، ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ح.ر.م.).

سرّتي فقال: أنت هو وربّ الكعبة، وإنّي متقدّم إليك في أمر فاحذره، قال أبو بكر: قلت: وما هو؟ قال: إيّاك والميل عن الهدى، وتمسّك بالطريقة المثلى الوسطى، وخَفِ الله فيما خَوَّلَكَ وأعطاك³⁷.

يندرج هذا الخبر في إطار أخبار البشارات، وهو هنا خاصّ بأبي بكر، ولكنّ فيه أموراً يشترك فيها مع أشباهه، وأبرز تلك الأمور مسألة الشامة أو العلامة التي كثيراً ما يكون الالتجاء إليها في القصص، فيتّمسّ استعمالها في النصوص المبشّرة بمقدم نبيّ أو الدالة على الشخصيات الهامة، فيتبادر إلى أذهننا خاتم نبوة محمّد بين كتفيه الذي مثّل أحد علامات نبوّته. فقد كان النبيّ صالح "على يده اليمنى شامة"³⁸. وهذا النبيّ إلياس "في رأسه شامة حمراء"³⁹. وروي عن ابن مسعود قوله: "ركب عمر فرساً فانكشف ثوبه عن فخذه، فرأى أهل نجران بفخذه شامة سوداء فقالوا هذا الذي نجد في كتابنا أنّه يخرجنا من أرضنا"⁴⁰، و"قال ابن عمر⁴¹: إنّنا كنّا نتحدّث أنّ هذا الأمر لا ينقضي حتّى يلي هذه الأمة رجل من ولد عمر يسير فيها بسيرة عمر بوجهه شامة، قال: حتّى جاء الله بعمر بن عبد العزيز"⁴².

وفي الإطار نفسه يكون لاختيار المبشّر أهميّة بالغة فيكون عالماً بالكتب، فتكون بذلك الإشارات التي يقدّمها إلهيّة ممّا يكسبها صدقاً وقداً، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الشيخ في الخبر، فهو "عالم قد قرأ الكتب"، وهذا الاختيار بدوره متكرّر، فلو عدنا مثلاً إلى الأخبار المتعلّقة بصفة النبيّ في التوراة والإنجيل لرأينا أنّها نسبت إلى رواة هم أصلاً من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار⁴³، ولا شكّ في أنّ ذلك كان لإكساب الخبر شرعيّة، فأن يروي الخبر أهله ما هو إلاّ تدعيم لصدقه. وبالإضافة إلى هذا العلم فإنّ الشيخ ينتسب إلى الأزدي، أي إنّ من اليمن، وهذه النسبة هامة بالنسبة إلينا باعتبار أنّ الكثير من الأحاديث تؤكّد فضل الأزديّ ويتمّ التأكيد فيها على أمانتهم، وقد كان هذا الشيخ في الخبر بالفعل مؤدّياً لأمانته. واللافت للنظر أنّ من الأحاديث ما يؤكّد هذه الأمانة ويجعلها اختصاصاً في ربط واضح مع الشأن السياسيّ الذي نحن بصدد النظر فيه، فقد روي "عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: الملك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في

³⁷ - ابن الأثير، أسد الغابة، م 3، ص 207

³⁸ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 2، ص 617

³⁹ - المصدر نفسه، ج 2، ص 637

⁴⁰ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 326

⁴¹ - المقصود محمّد بن عمر الواقدي

⁴² - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 5، ص 331

⁴³ - كثيراً ما يتمّ الخلط، ويعتبر كعب الأحبار من الصحابة، وهو ليس كذلك فهو من التابعين، وربّما كثرة رواياته في التفسير وغيره جعل الأمر يختلط على الكثيرين.

الحبشة، والأمانة في الأزدي، يعني اليمين⁴⁴. وروي عن النبيّ قوله: "نعم القوم الأزدي، طيبة أفواههم، برة أيمانهم، نقيّة قلوبهم"⁴⁵.

وفي خبر الشيخ الأزديّ أيضاً موازنة خفيّة بين فتى لم يسمّه وكهل هو أبو بكر، وما الفتى المنعوت بأنّه "خوّاض غمرات ودفاع معضلات" إلا عليّ الذي اشتهر لدى المسلمين بشجاعته ومجازفاته الحربيّة، ولكنّه على أيّ حال يبقى فتى حين يساعد النبيّ ولا يرقى إلى نضج الكهل، ولم يكن هذا التحديد إلا تمهيداً لأهمّ ما جاء به الخبر، وهو الخلافة، فما إن تأكد الشيخ الأزديّ من أبي بكر حتّى قدّم له النصّح، وهو نصّح يماثل ما نقف عليه من نصائح يقدّمها الحكماء إلى الخلفاء والملوك، وكأنّه يستبّق استخلاف أبي بكر الذي وجده في الكتب، وبذلك يسعى الخبر إلى تأكيد أنّ خلافة أبي بكر أمر إلهيّ كتبه الله على المسلمين قديماً، وبشّرت به كتبه تماماً كما بشّرت ببعثة محمّد.

لقد سعت الأدبيّات الإسلاميّة إلى تأكيد سابقة أبي بكر، مع الإلحاح على أنّه أسلم قبل عليّ بالخصوص، ولمّا كانت الروايات "التاريخيّة" تشكّك في هذا الأمر، تمّ اللجوء إلى أخبار مستندة إلى البشارات لبيان هذه السابقة، فقد روي عن ميمون بن مهران قوله: "والله لقد آمن أبو بكر بالنبيّ زمن بحيرى الراهب حين مرّ به، واختلف بينه وبين خديجة حتّى أنكحها إيّاه، وذلك كلّه قبل أن يولد عليّ"⁴⁶. وهذا الخبر مبنيّ على ما روته المصادر المتأخّرة بالخصوص من "أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبيّ وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبيّ ابن عشرين سنة، وهما يريدان الشام في تجارة حتّى إذا نزلوا (كذا) منزلاً فيه سدرة قعد النبيّ في ظلّها، ومضى أبو بكر إلى راهب اسمه بحيرى يسأله عن شيء فقال له: من الرجل الذي في ظلّ السدرة؟ فقال: ذلك محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب. فقال له: هذا والله نبيّ، ما استظلّ تحتها بعد عيسى بن مريم إلا محمّد، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فلمّا نبئ النبيّ اتّبعه أبو بكر"⁴⁷. والواضح من خلال مقارنة المصادر أنّ قصّة بحيرى الراهب جاءت بصيغ مختلفة ومتباعدة، ويبدو أنّ رواية ابن الأثير كانت رواية تسعى إلى تأكيد سابقة أبي بكر أكثر من تأكيد التبشير بنبوّة محمّد. فقصّة بحيرى الراهب وبشارته ببعثة النبيّ في سيرة ابن هشام تتحدّث عن أنّ أبا طالب أخذ معه محمّداً، وهو غلام صغير، في تجارة إلى الشام فتعرّف إليه بحيرى، ولا

⁴⁴ - سنن الترمذي، باب في فضل اليمين.

⁴⁵ - مسند ابن حنبل، باقي مسند المكثرين، الحديث 8261

⁴⁶ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 35

⁴⁷ - ابن الأثير، أسد الغابة، م 1، ص 231

ذكر في روايته عن ابن إسحاق لأبي بكر⁴⁸. أما رواية الترمذي التي انفرد بها من جملة كتب الحديث التسعة فتخبر أنّ الراهب ناشد أبا طالب بعد تعرّفه إلى محمّد وأنّه سيكون نبياً أن يرده خوفاً عليه، فبعث معه أبا بكر وبلالاً⁴⁹. وقد ذهب ابن كثير إلى أنّ عمر النبيّ عندما التقى ببحيرى كان اثنتي عشرة سنة، واستغرب حضور أبي بكر وبلال في الرواية، فقال: "كان عمر أبي بكر إذّاك تسع سنين أو عشر، وعمر بلال أقلّ من ذلك، فأين كان أبو بكر إذّاك؟ ثمّ أين كان بلال؟ كلاهما غريب، اللهم أن يقال إنّ هذا كان ورسول الله كبيراً"⁵⁰. وبالفعل وقفنا على رواية مشابهة لرواية ابن الأثير ولكن كانت قبيل زواج محمّد من خديجة، عندما خرج متاجراً بمالها مع غلامها ميسرة، ووصلا الشام "فنزل رسول الله في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطّلع الراهب إلى ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قریش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبيّ"⁵¹.

يبدو من خلال كلّ ما أوردناه من أخبار أنّ قصّة خروج أبي بكر مع النبيّ متاجرين، ووقوع اليقين في قلب أبي بكر بعد بشارة الراهب لم تكن، كغيرها، سوى قصّة مركّبة عوّض فيها أبو بكر أبا طالب أحياناً، وميسرة أحياناً أخرى، واستبدلت القصّة وظيفتها الأساسيّة في السيرة وهي التبشير بنبوّة محمّد بوظيفة ثانية هي تأكيد فضل أبي بكر وسابقته في الإسلام. والملاحظ أيضاً أنّ أخبار البشارات تتناسل في السيرة تبشيراً بالنبيّ، فقد مثّلت قصّة بحيرى قصصاً أخرى مشابهة وحاملة للوظائف نفسها، ذلك أنّه لمّا "كانت قصّة بحيرى وليدة المخيال الديني، فإنّ هذا المخيال لم يقف عند هذا الحدّ، فقد ولّد، انطلاقاً من حادثة بحيرى، حادثة ثانية شبيهة بها، ونسبها إلى راهب آخر ذكرت بعض المرويّات أنّه الراهب نسطور"⁵². وهذا التوالد في الأخبار المتعلّقة بتبشير الرهبان والكهّان بمحمّد ونبوّته تماثل توالد الأخبار المتعلّقة بالتبشير بسابقة أبي بكر في الإسلام بل وبخلافته أيضاً، فمن الأخبار المندرجة في إطار البشارات ما يقرن نبوّة محمّد بخلافة أبي بكر حتّى لكأنّ الأمرين متلازمان لا يكون أحدهما إلا بالآخر.

⁴⁸- راجع قصّة بحيرى الراهب في: سيرة ابن هشام، م 1، ج 1، ص 131-133. ويقول منصف الجزّار: "وردت قصّة بحيرى في مرويّات السيرة وفي كتب المؤرّخين بصيغتين اتّفقتا في عديد التفاصيل، واختلفتا في دقيق الجزئیات، وهما بذلك تعودان إلى أصل مشترك، وتعتبر رواية محمّد بن إسحاق أكثر تواتراً، فقد ذكرها يونس بن بكير فابن هشام بإسناد، وذكرها ابن سعد بإسناد آخر، ثمّ تتابع ذكرها في المصادر اللاحقة، إلا أنّ رواية ثانية لقصّة بحيرى ظهرت بواسطة أبي موسى الأشعري، واكتفت بعض المصادر بعرض القصّة استناداً إلى هذه الرواية الثانية"، المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، ص 230-231.

⁴⁹- سنن الترمذي، كتاب المناقب. عن رسول الله، باب ما جاء في بدء نبوّة النبيّ. وانظر أيضاً: الطبري، التاريخ، م 1، ص 319.

⁵⁰- ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 285.

⁵¹- سيرة ابن هشام، م 1، ج 1، ص 136. وانظر أيضاً: الطبري، التاريخ، م 1، ص 319.

⁵²- نصف الجزّار، المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، ص 238.

وهذا التلازم متكرّر في أخبار كثيرة، ومن ذلك خبر مشابه لخبر الشيخ الأزديّ، ولكنّه جاء بعد بعثة النبيّ على لسان صحابيٍّ آخر. "عن جبير بن مطعم قال: لما بعث الله نبيّه وظهر أمره بمكة خرجت إلى الشام فلمّا كنت ببُصرى أتتني جماعة من النصارى فقالوا لي: من الحرم أنت؟ قلت: نعم. قالوا: تعرف هذا الذي تنبأ فيكم؟ قلت: نعم. قال: فأخذوا بيدي فأدخلوني ديراً لهم فيه تماثيل وصور، فقالوا لي: انظر، هل ترى صورة هذا الذي بعث فيكم؟ فنظرت فلم أر صورته، فقلت: لا أرى صورته. فأدخلوني ديراً أكبر من ذلك فإذا فيه تماثيل وصور أكثر ممّا في ذلك الدير، فقالوا لي: انظر هل ترى صورته؟ فنظرت فإذا بصفة رسول الله وصورته، وإذا أنا بصفة أبي بكر وصورته، وهو أخذ بعقب النبيّ" ⁵³.

يدلّ هذا الخبر على أمرين: فهو، وإن كان مبدئياً يخبر بعلم النصارى بنبوّة محمّد وصدقها فإنّه من الواضح أنّه موضوع ليقرن بين النبيّ وخليفته الأوّل، فكما علم أهل الكتاب من النصارى بالنبوّة علموا أيضاً بالخلافة، وانظر الخبر ترّأباً بكر أخذاً بعقب النبيّ بكلّ ما يحيل عليه العقب من التتالي والتعاقب ومن دلالة على "عاقبة الإنسان في دينه ودنياه" ⁵⁴.

لقد ارتبطت السابقة إلى الإسلام السنّي بالخصوص بأبي بكر إلى الحدّ الذي ارتقت به إلى مرتبة العقيدة غير القابلة للنقاش، وكانت تلك السابقة من بين المبررات التي جعلت الأدبيّات الإسلاميّة تقرن أبا بكر بتصديقه الدائم للنبيّ في غير تردّد، ممّا ألصق به صفة "الصديق" التي غلبت على اسمه فغيّبت، فكانت صفته في كثير من وجوهاً مشكلة لجوانب من صورته.

ب. التلقيب بالصديق: الدلالات والتوظيف

اختلف القدامى اختلافاً كبيراً في اسم أبي بكر، ف قيل: عبد الله بن عثمان ⁵⁵. وقيل: "كان اسمه في الجاهليّة عبد الكعبة فسمّاه رسول الله عبد الله" ⁵⁶. "ويقال: عتيق بن عثمان" ⁵⁷. واختلف العلماء في المعنى الذي قيل له به عتيق، فقال الليث بن سعد وجماعة معه: إنّما قيل له عتيق لجماله وعناقه وجهه، وقال مصعب الزبيري وطائفة من أهل النسب: إنّما سمّي أبو بكر عتيقاً لأنّه لم يكن في نسبه شيء يعاب به، وقال آخرون:

⁵³ - المحبّ الطبري، الرياض النضرة، ص 254-255

⁵⁴ - النابلسي، تعطير الأنام في تعبير المنام، ص 337

⁵⁵ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 64

⁵⁶ - ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 2، ص 234

⁵⁷ - الطبراني، المعجم الكبير، ج 1، ص 52

كان له أخوان يسمّى أحدهما عتيقاً، وقد مات عتيق قبله فسمّى باسمه. وقال آخرون: إنّما سمّي عتيقاً لأنّ رسول الله قال: "من سرّه أن ينظر إلى عتيق من النار فليُنظر إلى هذا"، فسمّي عتيقاً بذلك⁵⁸. وروي عن القاسم بن محمّد أنّه سأل عائشة عن اسم أبيها فأجابت: "عبد الله، فقلت: إنّهم يقولون عتيق، فقالت: إنّ أبا قحافة كان له ثلاثة فسمّي واحداً عتيقاً ومعيتقاً ومعنقاً"⁵⁹. وروي أنّ "أمّ أبي بكر لا يعيش لها ولد، فلمّا ولدته استقبلت به البيت فقالت: اللهمّ هذا عتيقك من الموت فهبه لي"⁶⁰. هكذا نلاحظ أنّ المسلمين استبعدوا أنّ يكون اسم أبي بكر عتيقاً، ولكنهم لم ينفوا اتّصافه بذلك، فاستغلّوا الاسم لإضفاء صور عديدة منطلقاً من الاسم كجمال الخلقة، ونقاء النسب، أو اعتباره هبة من الله لأمّ أبي بكر. ولعلّ ما أشرنا إليه من استغلال الاسم أو الصفات لتشكيل صورة أبي بكر يزداد وضوحاً إذا نظرنا إلى الصفة التي أطلقت عليه واقتربت به وهي "الصديق" التي اتّفق المسلمون على إطلاقها على أبي بكر، ولكنهم اختلفوا في سبب اتّصافه بها.

تشير بعض الأخبار إلى أنّ اتّصاف أبي بكر بالصديق كان "السبقه إلى تصديق النبي"⁶¹. ولكن أكثر الأخبار تؤكد أنّ أبا بكر اتّصف بالصديق لأنّه صدّق النبي عندما أخبر قومه بأنّه أسري به إلى بيت المقدس ورجع إلى مكّة في ليلة واحدة، وكان ذلك بناء على ما روي "عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا أسري بالنبي، أتوا إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنّه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك فقد صدق. قالوا: أو تصدّقه أنّه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنّني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمّي أبا بكر الصديق"⁶².

في الخبر ما يدلّ على سعي المسلمين إلى إيجاد تبرير لتلقيب أبي بكر بالصديق بشرط أن يكون ذلك التبرير إسلامياً له علاقة بنبوّة محمّد، وهو الأمر الذي جعل المحدثين يؤكّدون أنّ الله هو من سمّي أبا بكر بالصديق فيغدو اللقب مقدّساً، فقد روي "عن أبي يحيى حكيم بن سعد قال: سمعت عليّاً رضي الله عنه يحلف إنّ الله أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق"⁶³، وروي عن "النزال بن سبرة قال: وافقنا عليّاً رضي الله عنه

⁵⁸ - ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 2، ص ص 234-235

⁵⁹ - الطبراني، المعجم الكبير، ج 1، ص 53. ومن الطريف المقارنة بين هذا الخبر وما يروى من أنّ فاطمة أنجبت ثلاثة أبناء سماهم النبي حسن وحسين ومحسن على أسماء أبناء هارون شبر وشبير ومشبر، انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، م 1، ص 557

⁶⁰ - ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج 2، ص 334

⁶¹ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 46

⁶² - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 65. وانظر أيضاً الطبراني، المعجم الكبير، ج 1، ص 51

⁶³ - الطبراني، المعجم الكبير، ج 1، ص 55

طيّب النفس وهو يمزح فقلنا: حدّثنا عن أصحابك، قال: كلّ أصحاب رسول الله أصحابي. فقلنا: حدّثنا عن أبي بكر. فقال: ذاك امرئ سمّاه الله صدّيقاً على لسان جبريل ومحمّد صلّى الله عليهما⁶⁴. وبذلك يؤدي الخبران دورين: الأوّل ذكر فضل أبي بكر على لسان عليّ، بما في ذلك من ردّ على مخالفتي أهل السنّة، والدور الثاني الإعلاء من شأن أبي بكر الذي لقّبه الله بواسطة ملك الوحي. وقد تمّ تأكيد قدسيّة لقب الصديق المنسوب إلى أبي بكر، فقد ارتفع أبو بكر بفضل هذا اللقب إلى مرتبة قريبة من مرتبة النبوّة، فقد روي "عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله: إذا كان يوم القيامة نُصب لإبراهيم عليه السلام منبر أمام العرش، ونصب لي منبر أمام العرش ونُصب لأبي بكر كرسيّ فيجلس عليه وينادي منادٍ: يا لك من صدّيق بين حبيب و خليل⁶⁵". وانظر كيف اختار الخبر أن يكون أبو بكر على كرسيّ وهو رمز السلطان والرفعة في المناصب ممّا يحيل ضمناً على الخلافة⁶⁶.

إنّ تأكيد المسلمين تلقّب أبي بكر بالصدّيق وإيراد أخبار عديدة في هذا الشأن لم يكن إلا ردّاً على أخبار أخرى تعارض الرؤية السنّية، فقد روي "عن عبّاد بن عبد الله قال: قال عليّ: أنا عبد الله، وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب، صلّيت قبل الناس بسبع سنين⁶⁷". فرغم وجود هذا الخبر في مصدر سنّي، فإنّه يكشف عن أنّ اللقب قد تمّ التنازع عليه لأنّه يشي بالسابقة في الإسلام والمبادرة إلى تصديق النبيّ. ووقفنا أيضاً على أقوال يذهب فيها أصحابها إلى أنّ لقب الصديق أطلق على أبي بكر، وقد "كان يلقّب به في الجاهليّة لما عرف منه من الصدق⁶⁸". ومثل هذا الخبر الذي لم يلق شهرة كبيرة قد يفسّر إلى حدّ كبير سبب إلحاح المسلمين على أنّ تلقيبه بالصدّيق كان أمراً إلهياً لم يتلقّب به إلا بعد الإسلام، غير أنّ هذا اللقب له جذور سابقة للإسلام.

تعود لفظة الصديق إلى أصل ساميّ، وتعني في السريانية الرجل النزيه⁶⁹. وارتبط هذا اللقب في النصّ القرآني بمريم بنت عمران [مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ]⁷⁰. وورد أيضاً

⁶⁴ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 65

⁶⁵ - المحبّ الطبري، الرياض النظرة، ص 193

⁶⁶ - يقول النابلسي إنّ الكرسيّ في المنام "رفعة من السلطان. ومن رأى أنّه جالس على كرسيّ فإنّه يكون وكيلاً أو وصيّاً وينال رفعة [...] والكرسيّ يدلّ لأرباب المناصب على العلوّ والرفعة"، تعطير الأنعام في تعبیر المنام، ص 392

⁶⁷ - مقدّمة سنن ابن ماجه، الحديث 117. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 26

⁶⁸ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 31

⁶⁹ - 89A. Mingana, Syriac Influence on the Style of the Kuran, p.

⁷⁰ - المائدة 75/5

وصفاً لإبراهيم: [وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا]⁷¹. وكذلك نُعِتَ إدريس: [وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إدريسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا]⁷². وكان اللقب بيوسف أعلق، وبدا لنا ذلك لافتاً للنظر، فقد ارتبط اللقب بيوسف لأنه كان بارعاً في تعبير الرؤيا، وهو ما يكشف عن السياق القرآني: [يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ...]⁷³. وقد اعترف المسلمون ليوسف بهذه الميزة، ولكنهم أضافوا إليه أبا بكر، ومن ذلك ما يذكره ابن عبد البر في معرض حديثه عن الرؤيا: "وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها [...] وكان أبو بكر الصديق من أعبر الناس لها"⁷⁴. وقرن ابن خلدون أبا بكر بمحمد ويوسف عند حديثه عن "علم تعبير الرؤيا"، فقال: "فلقد كان يوسف الصديق، صلوات الله عليه، يعبر الرؤيا، كما وقع في القرآن. وكذلك ثبت عن النبي، وعن أبي بكر رضي الله عنه"⁷⁵. ولا نستبعد أن يكون للقب علاقة بتعبير الرؤيا، فقد يكون الصديق هو من تصدق رؤياه. وقد حرص المسلمون على إلحاق ميزة تعبير الرؤيا بأبي بكر، فقد اعتبر "غاية في تعبير الرؤيا، وقد كان يعبر الرؤيا في زمن النبي، وقد قال محمد بن سيرين، وهو المقدم في هذا العلم بالاتفاق: كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبي"⁷⁶، وروي عن النبي قوله: "أمرت أن أوّل الرؤيا وأن أعلمها أبا بكر"⁷⁷.

لقد خدمت فضيلة تعبير الرؤيا بالنسبة إلى أبي بكر غرض مواصلة التجربة النبوية، فقد كانت الرؤيا الصالحة من مبشرات النبوة، واللافت للنظر أنّ هذا الإقرار نسبه المحدثون إلى النبي في آخر حياته والناس يصلّون خلف أبي بكر، فقد روي عن ابن عباس قوله: "كشف رسول الله الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له"⁷⁸. ولئن نسبت إلى أبي بكر أخبار كثيرة في تعبير الرؤيا فإنّ الرؤى ذات الطابع السياسي طغت على غيرها، ومن ذلك ما روي "عن ابن عباس أنّ رسول الله كان ممّا يقوله لأصحابه: من رأى منكم رؤيا فليقصّها عليّ فأعبرها له؟ قال: فجاء رجل فقال: يا رسول الله رأيت ظلّة بين السماء والأرض تنطف عسلاً وسمناً، ورأيت أناساً يتكفّفون منها فمستكثرون ومستقلّ، ورأيت سبباً واصلّاً من السماء إلى الأرض فأخذت به فعلوت فأعلاك الله، ثم أخذ الذي

⁷¹ - مريم 41/19

⁷² - مريم 56/19

⁷³ - يوسف 46/12

⁷⁴ - ابن عبد البر، التمهيد، ج 1، ص 314

⁷⁵ - ابن خلدون، المقدمة، ص 472

⁷⁶ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 44

⁷⁷ - المصدر نفسه، ص 44

⁷⁸ - صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود.

بعدك فعلاً فأعلاه الله، ثم أخذه الذي بعده فعلاً فأعلاه الله، ثم أخذه الذي بعده ففُطِعَ به ثم وُصِلَ فاتَّصل، فقال أبو بكر: يا رسول الله إئذن لي فأعبرها، وكان أعبر الناس للرؤيا بعد رسول الله فقال: أمّا الظلّة فالإسلام، وأمّا العسل والسمن فللقُرآن حلاوة العسل ولين السمن، وأمّا الذين يتكفّفون منه فمستكثرون ومستقلّ فهم حملة القرآن، فقال: أصبت وأخطأت، فقال: فما الذي أصبت وما الذي أخطأت؟ فأبى أن يخبره⁷⁹. لم يتمكّن أبو بكر من تفسير ما جاء في الرؤيا من أمر المتكفّفين من القرآن، فقد استعمل الخبر التلميح إلى الخلفاء بعد موت النبيّ بداية من أبي بكر إلى عليّ، أي فترة الخلافة الراشدة التي ستنقطع بمقتل عثمان ثم تتّصل بخلافة عليّ. والمهم أنّ الرؤيا استغلّت لتبرير ما حدث تاريخياً في الشأن السياسيّ، وهو استغلال متكرّر في كتب الحديث. واللافت للنظر أنّ التشريع لخلافة النبيّ قد يصل بالمحدثين إلى إيراد أحاديث تنتقص من عليّ بالخصوص، ومن ذلك وقوفنا على خبر يشبه الخبر السابق في تركيبه ويختلف عنه في مقاصده، وجاء في هذا الخبر "عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: وفدت مع أبي إلى معاوية بن أبي سفيان، فأدخلنا عليه فقال: يا أبا بكرة حدثني بشيء سمعته من رسول الله، فقال: كان رسول الله تعجبه الرؤيا الصالحة ويسأل عنها، فقال رسول الله ذات يوم: أيكم رأى رؤيا؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله، رأيت كأنّ ميزاناً دُلّي من السماء فوزنت أنت بأبي بكر فرجحت بأبي بكر رضي الله تعالى عنه، ثم وزن أبو بكر بعمر رضي الله عنه فرجح أبو بكر بعمر، ثم وزن عمر بعثمان رضي الله تعالى عنه فرجح عمر بعثمان رضي الله عنهم، ثم رُفِع الميزان. فاستاء لها رسول الله فقال: خلافة نبوة ثم يؤتي الله تبارك وتعالى الملوك من يشاء"⁸⁰.

وبالإضافة إلى مثل هذه الرؤى السياسيّة فقد مكّنت الأخبار أبا بكر من التنبؤ بأحداث مستقبلية كثيرة انطلاقاً من الرؤى التي تقصّ عليه، مثل تنبّئه بأنّه سيدفن مع النبيّ وعمر في حجرة عائشة، فقد روى "سعيد بن المسيّب قال: رأت عائشة رضي الله عنها كأنه وقع في بيتها ثلاثة أقمار، فقصّتها على أبي بكر، وكان من أعبر الناس، فقال: إن صدقت رؤياك ليدفنن في بيتك خير أهل الأرض ثلاثاً، فلما قبض النبيّ قال: يا عائشة هذا خير أقمارك"⁸¹. وروي "عن ابن سيرين قال: رأى عبد الله بن بديل رؤيا فقصّها على أبي بكر، فقال: إن صدقت رؤياك فإنك ستقتل في أمر ذي لبس. فقتل يوم صفين"⁸².

⁷⁹ - سنن الدارمي، كتاب الرؤيا، باب في القميص والبنر واللبن والعسل والسمن والتمر وغير ذلك في النوم.

⁸⁰ - مسند ابن حنبل، مسند البصريين، الحديث 19547

⁸¹ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 103

⁸² - مصنف عبد الرزاق، ج 11، ص 214

إنّ ما أردنا بيانه من خلال هذه الأمثلة أنّ فضيلة تعبير الرؤيا المنسوبة إلى أبي بكر لم تكن إلا تأكيداً تواصل التجربة النبويّة مع خليفة النبيّ، وتلك التجربة ستتواصل مع الخليفة الثاني عمر الذي عيّنه أبو بكر، وكان ذلك التعيين بدوره إحدى الفضائل المنسوبة إلى أبي بكر، فقد روي عن ابن مسعود قوله: "إنّ أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرّس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه، والمرأة التي رأت موسى عليه السلام فقالت لأبيها يا أبت استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما"⁸³.

إنّ الفراسة المنسوبة إلى أبي بكر، وبراعته في تعبير الرؤيا تؤيدان دوراً هاماً في تشكيل صورة أبي بكر الذي يعتبر امتداداً للفترة النبويّة، ولكنّ هذه الميزات إذا أضيفت إلى ما روي من مواقف أبي بكر في الأوقات الحرجة، كثباته يوم موت النبيّ، وموقفه في سقيفة بني ساعدة، وعزمه على قتال مانعي الزكاة، تعطينا صورة القائد الحكيم، ولذلك يمكننا جمع فضائل أبي بكر تحت عنوان الحكمة، واللافت للنظر أيضاً أنّ حكمة أبي بكر كانت دائماً في مقابلة مع عمر، ولكنّ ذلك لم يكن في كلّ الحالات، فللسياسة أحكامها ولا بدّ لها من قوّة، بل لا بدّ لها أن تمارس العنف أحياناً حتّى تكون ناجحة، لذلك أصاب عمر في بعض المواطن وأخطأ أبو بكر والنبيّ معه، والمثال الشهير على ذلك هو موقف النبيّ وأبي بكر من أسرى بدر، الذي كان مخالفاً لموقف عمر، ففي حين كانا متفقين على إبقاء الأسرى كان عمر مع قتلهم، فنزل الوحي مؤيداً رأي عمر الشديد مؤكّداً أنّ الحكمة تستوجب الشدّة كما تتطلب اللين.

ت. القرشيّة

طرح خبر الشيخ الأزديّ المذكور سابقاً نقطة هامّة كانت من بين مستندات المسلمين الأساسيّة في إضفاءهم الشرعيّة على خلافة أبي بكر، ونقصد مسألة القرشيّة، فأبو بكر كما جاء في الخبر جرّميّ من قريش من تيم. وقد قال الماوردي في القرن الخامس للهجرة في معرض تنظيره للأحكام السلطانيّة: "إنّ أبا بكر الصديق احتجّ يوم السقيفة على الأنصار في دفعهم عن الخلافة لمّا بايعوا سعد بن عبادَةَ عليها بقول النبيّ: "الأئمّة من قريش"، فأقلعوا عن التفرد بها ورجعوا عن المشاركة فيها"⁸⁴.

يبدو أنّ ما ذكره الماوردي لم يكن إلا محاولة لدرء الخلافات العنيفة التي نشبت بين المهاجرين والأنصار في السقيفة واستعمال الحديث لتبرير ما حدث تاريخياً. والدليل على ذلك الفوارق الكثيرة بين ما يرد

⁸³ - الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج 3، ص 96. وجاء في ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 273: "قال عبد الله: أفرس الناس ثلاثة أبو بكر في عمر، وصاحبة موسى حين قالت: استأجره، وصاحبة يوسف".

⁸⁴ - الماوردي، الأحكام السلطانيّة، ص 7

في مجاميع الحديث من تنصيب على شرط قرشيّة الخلافة، وما نقف عليه في كتب التاريخ المتقدّمة منها بالخصوص التي لا تذكر احتجاج أبي بكر بأحاديث قرشيّة الخلافة. ولعلّ كلّ ذلك يدلّ على تأخّر هذا الحديث. وما يدعّم هذه الفكرة ورود أحاديث القرشيّة بصيغ مختلفة، كلّ صيغة منها تسعى إلى تأكيد فكرة معيّنة، ومن ذلك ما رواه ابن حنبل من أنّ أبا بكر حاجّ سعد بن عباد في اجتماع السقيفة، فقال: "ولقد علمت يا سعد أنّ رسول الله قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فبرّ الناس تبع لبرّهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء"⁸⁵. ولا يخفى ما في هذا الخبر من تعارض مع روايات أخرى تؤكّد أنّ سعد بن عباد لم يقتنع بمحاكاة القرشيين، ولم يبايع أبا بكر ولا عمر أيضاً، وهو ما أشرنا إليه سابقاً. والواضح أنّ مثل هذا الخبر يسعى إلى تلطيف ما شجر بين الصحابة من تخاصم وهو أمر مطّرد في الأدبيات الإسلاميّة حتّى لا يقع الطعن في عدالة الصحابة، وليتمّ الكفّ عمّا شجر بينهم.

ولئن كانت الأحاديث المرفوعة إلى النبيّ التي تؤكّد قرشيّة الخلافة كثيرة ومختلفة الصيغ فإنّنا نورد هنا بعضها لبيان مدى حرص المحدثين على تأكيد قرشيّة الخلافة التي تضيف الشرعية على استخلاف أبي بكر بإيعادها الأنصار عن مشاركة قريش في خلافة النبيّ. فقد روي عن عبد الله بن عمر أنّ النبيّ قال: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان"⁸⁶. ونقف على روايات كثيرة أخرى في المعنى نفسه، ولكنها تقيم موازنة بين المهاجرين والأنصار من قبيل ما روي "عن أنس بن مالك قال: كنّا في بيت رجل من الأنصار فجاء النبيّ حتّى وقف فأخذ بعضادة الباب فقال: الأئمّة من قريش ولهم عليكم حقّ ولكم مثل ذلك ما إذا اسّرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا وإذا عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"⁸⁷. وتأخذ روايات أخرى طابعاً قصصياً ليؤكّد قرشيّة الخلافة فروي "عن جابر قال: سمعت رسول الله يقول: يكون بعدي اثنا عشر أميراً، ثمّ تكلم بشيء لم أفهمه، فسألت القوم فقالوا: كلّهم من قريش"⁸⁸. ولئن كان الخبر مندرجاً ضمن سعي المسلمين إلى تأكيد قرشيّة الخلافة فإنّه طرح العديد من الإشكاليات التأويليّة أمام شراح الأحاديث، فعدد الأمراء المنصوص عليهم في الخبر لا يخدم المنظومة السنيّة قطعاً، بل على عكس ذلك تماماً "استخدمه الشيعة الاثنا عشرية كحجّة (كذا) سنيّة المصدر لتأييد دعواهم في إمامة الاثني عشر"⁸⁹. وقد

⁸⁵ - مسند ابن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة، الحديث 18

⁸⁶ - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قريش.

⁸⁷ - مسند ابن حنبل، باقي مسند المكثرين، الحديث 12489

⁸⁸ - الطبراني، المعجم الكبير، ج 2، ص 223

⁸⁹ - عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، ص 250

أورد عبد الجواد ياسين عند تعرّضه لهذا الحديث مختلف التأويلات السنيّة لهذا الحديث وبيّن تهاافتها⁹⁰. ولنا أن نتساءل هنا عن سبب إيراد مثل هذا الخبر في المصادر السنيّة إذا كان لا يخدم الأهداف السنيّة. إنّ ذلك في رأينا يعود إلى أمرين: أولهما اهتمام المحدثين بالسند أكثر من اهتمامهم بمتن الحديث. والأمر الثاني، وهو الأهم في نظرنا، يتعلّق بأنّ المحدثين ينقادون في كثير من الأحيان إلى خدمة غرض ما ولكنهم يكشفون في الخبر نفسه عن أمر آخر قد يكون مناقضاً لما يذهبون إليه، فحين يثبتون مثلاً ما وقع بين الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة بغرض بيان فضل المهاجرين ومناقب أبي بكر أو عمر أو غيرهما، فإنّهم يسجّلون بالتوازي ما حصل من صراع بين الصحابة على السلطة، وحين يريدون إبراز فضل أبي هريرة مثلاً فإنّهم يسجّلون في الوقت نفسه مطاعن بعض الصحابة فيما يرويه من أخبار، بل قد يجرّهم الأمر أحياناً إلى الحطّ من قيمة صحابي ما لرفع قدر آخر.

هذه الأخبار المؤكّدة لقرشيّة الخلافة بصفة مباشرة تعضدها أخبار أخرى تسعى إلى بيان فضل المهاجرين على الأنصار ولكن بصورة غير مباشرة، ومنها هذا الخبر: "خطب النبيّ الناس بمنى ونزلهم منازلهم فقال: لينزل المهاجرون ها هنا، وأشار إلى ميمنة القبلة، والأنصار ها هنا، وأشار إلى ميسرة القبلة، ثمّ لينزل الناس حولهم"⁹¹. وبذلك ينزل الخبر المهاجرين على اليمين والأنصار على الشمال، واليمين أفضل من الشمال. وتستعمل الصورة نفسها تقريباً فيتمّ تنزيل المهاجرين في المقدّمة والأنصار في المؤخّرة، فروي عن "عبد الرحمن بن معاذ قال: خطبنا رسول الله بمنى ففتح الله أسماعنا حتّى إنّ كُنّا لنسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق النبيّ يعلمهم مناسكهم حتّى بلغ الجمار، فقال بحصى الخذف وأمر المهاجرين أن ينزلوا في مقدّم المسجد وأمر الأنصار أن ينزلوا في مؤخّر المسجد"⁹².

إنّ رفع أخبار قرشيّة الخلافة إلى النبيّ لم تكن إلا لإضفاء الشرعية الدينيّة على خلافة أبي بكر واستئثار القرشيين بالخلافة، فتلك الأحاديث كما رأينا مضطربة، ولم تكن سوى نتيجة لرؤية أبي بكر السياسيّة عند حاجّة الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وهي رؤية كانت الاعتبار الدينيّة فيها ضعيفة جدّاً، فقد روي عن أبي بكر قوله: "لن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً"⁹³. فلا ذكر إذن لأفضليّة قريش إلا بمركزها القبليّ، ولكنّ ذلك سيأخذ أبعاداً دينيّة لاحقة فتُعظّم قريش ودوننا قول الجاحظ

⁹⁰ - المرجع نفسه، ص ص 250-256

⁹¹ - سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب النزول بمنى

⁹² - سنن النسائي، كتاب مناسك الحجّ، باب ما ذكر في منى.

⁹³ - صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى في الزنى.

"وقريش قوم لم يزل الله تعالى يقلبهم في الأرحام البريئة من الآفات، وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات، ويعبئهم لكلّ جسيم، ويربّيهم لكلّ عظيم"⁹⁴.

لقد كان تنصيب أبي بكر خليفة للمسلمين مستجيباً للتقاليد القبليّة، فقد "كان لعامل السنّ والخبرة والإشعاع الذاتي أثر حاسم في تعيين أبي بكر خليفة للرسول على غرار ما كان معهوداً في التقاليد القبليّة"⁹⁵. ونقول ذلك دون أن نقصي تماماً رأياً آخر يقسم الشرف إلى شرف ما قبل إسلامي وآخر إسلامي، وبناء على ذلك فإنّ "مقاييس تولّي أبي بكر خلافة المسلمين بعد النبيّ قد خضعت أساساً لمقاييس الشرف الإسلاميّ القائم على الأقدميّة في الإسلام والبلاء في الجهاد"⁹⁶. وربّما شكّلت قراءة ابن خلدون حالة استثنائية في التراث السنّي، فقد تجاوز ابن خلدون ما اعتبره تفسيراً مشهوراً في اشتراط النسب القرشيّ، وهو تفسير مفاده أنّ اشتراط ذلك النسب هو تبرّك بالصلة إلى النبيّ، إلى تفسير ذلك بالمصلحة القائمة على الغلبة والعصبية⁹⁷.

يبدو من خلال كلّ الأخبار التي أوردناها أنّ أهل السنّة حاولوا جاهدين إرساء ما يشبه النصّ على خلافة أبي بكر، ولكنّ ذلك لم يتسنّ لهم، وراح المسلمون أمام حملات التشكيك في القول إنّ أبا بكر كان أوّل المسلمين، وكذلك مسألة قرشيّة الخلافة إلى التأكيد أنّ إسلام أبي بكر كان هو الأفضل. ولئن فسّر الغزالي هذه الأفضليّة بقوة إيمان أبي بكر حين قرّر: "وما فضّل أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صيام، ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام، ولكن بشيء وقر في صدره كما شهد له سيّد المرسلين"⁹⁸، فإنّ تفسير الجاحظ لهذه الأفضليّة كان أكثر واقعيّة فهو يقول: "والدليل على أنّ إسلام أبي بكر كان أفضل من إسلام زيد وخبّاب أنّ زيدا كان رجلاً غير مذكور بعلم ولا مزرّاً بمال، ولا مغشيّ المجلس ولا مزور الرّحل، وكذلك كان خبّاب، وكان أبو بكر، رضي الله عنه، أعلم العرب بالعرب كلّهم، وأروها لمناقبها ومثالبها وأعرفها بخيرها وشرّها"⁹⁹.

قلنا إنّ تفسير الجاحظ كان أكثر واقعيّة، لأنّ ما ذكره من خصال أبي بكر كانت ممّا أفاد منه محمّد لنشر دعوته، فأبو بكر كان ينتمي إلى تيم بن مرّة، وهذه العشيرة القرشيّة كانت تتمتع بنفوذ هامّ باعتبار أنّها تمتلك

⁹⁴ - الجاحظ، الرسائل، رسالة في المتعلّمين، م 2، ج 3، ص 36

⁹⁵ - عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ص 103

⁹⁶ - حياة عمامو، السلطة والشرعية في نظام الحكم الإسلاميّ المبكر، ص 19

⁹⁷ - يقول ابن خلدون: "ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشيّ ومقصد الشارع منه، لم يُقتصر فيه على التبرّك بوصلة النبيّ كما هو في المشهور [...] وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة"، المقدّمة، ص 193

⁹⁸ - الغزالي، الإحياء، ج 1، ص 36

⁹⁹ - الجاحظ، كتاب العثمانية، ص 24

أهم مركز استشاري لقريش وهو دار الندوة التي لم تكن سوى دار عبد الله بن جُدعان التيمي، وفي هذه الدار عقد حلف الفضول، الذي حضره محمد قبل البعثة وأشاد به في الإسلام¹⁰⁰. وهذا الانتماء القبلي الشريف جعل أبا بكر يتمتع بإشعاع كبير بين القبائل، ولعل ذلك كان من الأسباب الهامة التي جعلت عدداً من الرجال يسلمون بدعوته في حين أنّ محمدًا لم يتبعه سوى خديجة وعليّ ومولاه زيد، والأهم أنّ المسلمين بدعوة أبي بكر كانوا في أغلبهم من ذوي الأسنان على حدّ عبارة القدامى مثل عثمان بن عفّان والزبير بن العوّام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وغيرهم¹⁰¹. ولعلّ ما ذكره ابن هشام من صفة أبي بكر يفسّر إلى حدّ بعيد نجاحه في دعوته إلى الإسلام، فقد ذكر عن ابن إسحاق قوله: "وكان أبو بكر رجلاً مألُفاً لقومه، محبوباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشرّ، وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق معروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممّن يغشاه ويجلس إليه"¹⁰².

ث. الرفقة في الهجرة

كانت مكانة أبي بكر ومعرفته بالأنساب وخبرته التجارية من العوامل الحاسمة التي جعلت محمدًا يختار أبا بكر رفيقاً له في الهجرة، ولكنّ المسلمين لم يلتفتوا إلى الأسباب الموضوعيّة للاختيار فجعلوا أمر الرفقة في الهجرة اصطفاً إلهياً لا دخل لمحمد ولا لأبي بكر فيه، وكانت تلك الرفقة من أهمّ العناصر المشكّلة لصورة أبي بكر.

روي "عن عليّ رضي الله عنه أنّ النبيّ قال لجبريل: من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصديق"¹⁰³. ويسعى مثل هذا الخبر إلى تأكيد أنّ هجرة أبي بكر مع النبيّ إلى المدينة كان أمراً شبيهاً بالوحي ممّا يعلي من مكانة أبي بكر، فكأنّ الله اختاره لصحبة نبيّه. وفي السياق نفسه يمكن إدراج الخبر الذي رواه ابن هشام في بداية حديثه عن الهجرة إذ يقول: "وأقام رسول الله بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلّف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فُتن، إلا عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله في الهجرة، فيقول له رسول الله: لا تعجل

¹⁰⁰ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 128-129. وانظر: مالك مسلماني، ميلاد الدولة الإسلاميّة، ص 102

¹⁰¹ - راجع سيرة ابن هشام، م 1، ج 1، ص 181-190، حيث عقد فصلاً عنوانه: "ذكر من أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر الصديق رضي الله عنه".

¹⁰² - المصدر نفسه، م 1، ج 1، ص 180

¹⁰³ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 6

لعلّ الله يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكونه"¹⁰⁴. وبالفعل تحقّق ما طمع أبو بكر فيه، فقد أتاه النبيّ، على ما روته عائشة، "بالحاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها [...] فقال: إنّ الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة"¹⁰⁵.

كذلك كانت الرواية عن عائشة فيما يتعلّق بالخروج إلى الهجرة، وسادت روايتها وتلقّتها الأُمَّة بالقبول حاجبة روايات أخرى "تؤكد أنّ أبا بكر تخلف عن مصاحبة النبيّ في بدء الهجرة، ثمّ لحق به في الغار بتوجيه من عليّ بن أبي طالب تنفيذاً لتوصية من النبيّ"¹⁰⁶. الواضح إذن أنّ اختلاف الروايّتين راجع بالأساس إلى توظيف كلّ منهما عقائديّاً وسياسيّاً، فالرواية المشهورة عن عائشة تستجيب تماماً للمنظور السنّي المفضّل لأبي بكر على عليّ، فصاحبه في الهجرة قد اصطفاه الله لهذه المهمّة، وأراده النبيّ أن يكون معه، فاستودعه سرّه في أمر جليل. في حين أنّ الرواية الثانية لا تنسجم مع ذلك المنظور ففيها "إشارات صريحة إلى تقديم عليّ على أبي بكر. [...] وتدلّ هذه الاختلافات الجوهرية بين الروايات على أثر التوظيف المذهبي للأخبار، والاستناد إلى المخيال لتمثّل الأحداث على شاكلة محدّدة قصد نصرته التوجّه المذهبي"¹⁰⁷.

خرج أبو بكر إذن مصاحباً للنبيّ في الهجرة، واعتبر ذلك الخروج من فضائل أبي بكر الكبرى، واعتمد لاحقاً مستنداً من مستندات شرعية خلافته للنبيّ. وتخفي قصّة الهجرة جانباً آخر هاماً، فقد أبقت عليّاً في فراش النبيّ وكاد يقتل. ولئن كان ذلك في جانب منه يدلّ على أنّ القصّة "اختارت عليّاً خليفة لمحمّد، فجلس على فراشه، رمز السلطان، وتسجّى بالبرد الأخضر" فإنّها من جهة ثانية تومئ بأنّ محمّداً "ألقي بعليّ، ابن عمّه وصاحبه، إلى الموت، وفضّل الخروج مع أبي بكر ليصاحبه في هجرته، فترفع القصّة من هذه الوجهة من شأن هذا الصاحب، وتحطّ من شأن الصاحب الآخر"¹⁰⁸. ولكنّ القصّة لم تتخلّ تماماً عن ابن عمّ النبيّ وخليفته الرابع فوفّرت له الحماية التي كانت فراش النبيّ وبرده الأخضر اللذين أديا دور التميّة تحمي عليّاً من سوء، فحين عزم النبيّ على الهجرة بأمر من جبريل "قال لعليّ بن أبي طالب: نم على فراشي وتسجّ ببردي هذا الحضرميّ الأخضر، فإنّه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم"¹⁰⁹.

¹⁰⁴- سيرة ابن هشام، م 1، ج 2، ص 64

¹⁰⁵- المصدر نفسه، م 1، ج 2، ص 68

¹⁰⁶- منصف الجزّار، المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، ص 487. وانظر هناك نصّ هذه الرواية الثانية منقولة عن تاريخ الطبري.

¹⁰⁷- منصف الجزّار، المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، ص 479

¹⁰⁸- وحيد السعفي، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص 606

¹⁰⁹- سيرة ابن هشام، م 1، ج 2، ص 66

وكان لا بدّ أن يمرّ محمّد وأبو بكر بغار ثور فيختبئاً فيه هرباً من كفّار مكّة، وبذلك أضيفت إلى أبي بكر فضيلة أخرى، فقد أصبح صاحب محمّد في الغار، ونزل في ذلك قرآن يروي لنا ما حدث: [إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ]¹¹⁰. وقد اعتبر حضور أبي بكر في الغار مع النبيّ "أعظم فضائله التي استحقّ بها أن يكون الخليفة من بعد النبيّ"¹¹¹. واعتبرت الآية دليلاً على استخلاف أبي بكر، فقد "قال بعض العلماء في قوله تعالى: [ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ]: ما يدلّ على أنّ الخليفة بعد النبيّ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، لأنّ الخليفة لا يكون أبداً إلا ثانياً"¹¹². ويضيف القرطبي: "وسمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول: إنّما استحقّ الصديق أن يُقال له ثاني اثنين لقيامه بعد النبيّ بالأمر كقيام النبيّ به أولاً"¹¹³. واستغلّ عمر صحبة أبي بكر في هجرته واختبائه معه في الغار لتنصيبه خليفة على المسلمين، فقد خطب "حين جلس على المنبر وذلك الغد من يوم توفيّ النبيّ فتشهد، وأبو بكر صامت لا يتكلّم، قال: كنت أرجو أن يعيish رسول الله حتّى يدبرنا، [...] فإن يك محمّد قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمّداً، وإنّ أبا بكر صاحب رسول الله ثاني اثنين فإنّه أولى المسلمين بأمرهم فقوموا فبايعوه"¹¹⁴.

بذلك استطاعت قصّة الهجرة "أن تجذّر في الأرض خليفة لمحمّد، فجعلت أبا بكر صاحباً له في الغار [...] وإذا ما غاب محمّد يوماً كان أبو بكر جاهزاً ليضطلع بالأمر. وإذا ما تخاصم القوم يوماً بشأن الخليفة من بعد محمّد أكسبت هذه الصحبة أبا بكر شرعيةً وأحاطته بهالة من القداسة وكانت حجةً من قدّمه على غيره، وخاصةً على عليّ الذي تُرك في البيت وكادت تضرب عنقه"¹¹⁵.

ج. من الإمامة الصغرى إلى الإمامة العظمى

يمكننا تنزيل العديد من الأخبار التي جاءت متزامنة مع مرض النبيّ الذي مات فيه وخاصةً تقديم أبي بكر للصلاة بالناس، وصلاة النبيّ خلفه ضمن الأخبار المبينة فضائل أبي بكر والمؤكّدة لشرعية خلافته.

¹¹⁰ - التوبة 40/9

¹¹¹ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 13، ص 209

¹¹² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص 147

¹¹³ - المصدر نفسه، ج 8، ص 147

¹¹⁴ - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف.

¹¹⁵ - وحيد السعفي، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص 608

لئن قدّم النبيّ أبا بكر للصلاة فإنّ الأخبار تقرّر أنّ الله هو من قدّمه، فقد "قالت حفصة: يا رسول الله، إنك مرضت فقدّمت أبا بكر، قال: لست الذي قدّمته ولكن الله قدّمه"¹¹⁶. وتأكدت تلك الشرعيّة بسدّ كلّ أبواب المسجد إلا باب أبي بكر، فروي "عن ابن عباس قال: خرج رسول الله في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فقع على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنّ ليس من الناس أحد آمنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنّ خلة الإسلام أفضل، سدّوا عني كلّ خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر"¹¹⁷. ولم يكن هذا الفعل أيضاً اختياراً محمّداً بل كان بدوره أمراً إلهياً، فقد "قال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله، ما لك فتحت أبواب رجال في المسجد؟ وما بالك سدّدت أبواب رجال في المسجد؟ فقال رسول الله: يا عباس ما فتحت عن أمري ولا سدّدت عن أمري"¹¹⁸. وقامت بناء على قصّة سدّ أبواب المسجد مفاضلة متجدّدة بين أبي بكر وعليّ، فكان استثناء باب أبي بكر هو الصحيح في المصادر السنيّة، واستثناء باب عليّ من الأخبار الموضوعيّة¹¹⁹. وهذا التصنيف في رأينا لا يقوم على السند فقط، كما هو في الغالب عند المحدثين، بل الأمر متعلّق أيضاً بمتن الحديث الذي لا يتلاءم مع المنظور السنيّ ولا يخدمه لذلك حكم عليه بأنّه موضوع، ممّا يجعل الأمر متعلّقاً بالجدل السنيّ الشيعي، وهو جدل واضح في الحديث وفي الأخبار المنسوبة إلى النبيّ، فتتحوّل مناقب أبي بكر إلى عليّ، والعكس أيضاً صحيح، فعلى سبيل المثال يروى "عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: إنّ الله علماً من نور مكتوب عليه: لا إله إلا الله محمّد رسول الله، أبو بكر الصديق"¹²⁰. ونحسب أنّ هذا الخبر ردّ على الشيعة الذين يضيفون عبارة "عليّ وليّ الله" إلى الشهادتين. وهذا النوع من الردود الذي يستعمل المنسوبات إلى النبيّ متكرّر، ويمكن أن نسوق على ذلك بعض الأمثلة. روي "عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله: إنّني قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض"¹²¹. وهذه الرواية يعتبرها الشيعة حجّة سنيّة المصدر على مكانة أهل البيت، والمهمّ بالنسبة إلينا وجود رواية مشابهة في التركيب تعوّض فيها السنّة أهل البيت، من قبيل ما رواه أبو هريرة عن النبيّ أنّه قال: "إنّني قد تركت شيئين لن تضلّوا بعدهما: كتاب الله وسنّتي، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليّ

¹¹⁶ - ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج 4، ص 256

¹¹⁷ - صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والمرّ في المسجد.

¹¹⁸ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 228

¹¹⁹ - ابن عراق الكنتاني، تنزيه الشريعة المرفوعة، ج 1، ص 383

¹²⁰ - المحبّ الطبري، الرياض النضرة، ص 195

¹²¹ - الطبراني، المعجم الكبير، ج 5، ص 169

الحوض" ¹²². والأمر ينطبق تماماً على روايتين الأولى في فضائل أبي بكر وعمر وجاء فيها عن عليّ أنّ النبيّ قال فيهما: "هذان سيّداهما أهل الجنة وشبابها بعد النبيّين والمرسلين" ¹²³، والرواية الثانية عن أبي سعيد الخدري ورد فيها أنّ النبيّ قال: "حسن وحسين سيّداهما شباب أهل الجنة" ¹²⁴. وقد أورد الحاكم النيسابوري الرواية الثانية في المستدرک وعلّق عليها بقوله: "هذا حديث قد صحّ من أوجه كثيرة وأنا أتعجب أنّهما [البخاري ومسلم] لم يخرجاه" ¹²⁵. وقد استغرب الحاكم النيسابوري من إقصاء الرواية من صحيح البخاري ومسلم لأنّه كان يعتمد السند فقط مقياساً للصحة دون النظر إلى ما يمكن أن يؤدّيه متن الحديث من إكساب المخالف الحجة. وفي الإطار الجدالي نفسه وردت الروايات في من كان حاضراً وقت وفاة النبيّ ومكانها، فروي عن عائشة: "توفيّ النبيّ في بيتي وفي نوبتي وبين سحري ونحري" ¹²⁶. وإزاء هذه الرواية يروى "عن عليّ بن حسين قال: قبض رسول الله ورأسه في حجر عليّ" ¹²⁷. ودفاعاً عن رواية عائشة يعتبر ابن حجر العسقلاني حديث عائشة "يعارض ما أخرجه الحاكم وابن سعد من طرق أنّ النبيّ مات ورأسه في حجر عليّ، وكلّ طريق منها لا يخلو من شيعي، فلا يلتفت إليهم" ¹²⁸. هكذا يؤكّد لنا العسقلاني أهميّة هذه الروايات في الجدل السنّي الشيعي المرتبط أساساً بالخلافة، فموت النبيّ ينبغي أن يكون، في المنظور السنّي، في حجر عائشة بنت أبي بكر لا في حجر عليّ الذي عارض خلافة أبي بكر وادّعى أصحابه أنّه الأحقّ بخلافة محمّد.

¹²² - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 1، ص 172

¹²³ - مسند ابن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة، الحديث 568

¹²⁴ - الطبراني، المعجم الكبير، ج 3، ص 39

¹²⁵ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 182

¹²⁶ - صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما جاء في بيوت أزواج النبيّ، وما نسب من البيوت إليهنّ.

¹²⁷ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 263

¹²⁸ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 8، ص 139

لائحة المصادر والمراجع

1. المصادر

- ابن الأثير (عزّ الدين أبو الحسن عليّ)،
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، بيروت، دار الفكر، 1419 هـ / 1998 م.
- البخاري (محمّد بن إسماعيل)، **الجامع الصحيح**، ضبط النصّ محمود محمّد محمود حسن نصّار، دار الكتب العلميّة، 1421 هـ / 2001 م.
- الترمذي (أبو عيسى محمّد بن عيسى)، **السنن**، تحقيق محمّد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث، (د. ت.).
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)،
- **الرسائل**، شرحه وعلق عليه محمّد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1420 هـ / 2000 م.
- **كتاب العثمانيّة**، تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون، بيروت، دار الجيل، 1411 هـ / 1991 م.
- الجويني (أبو المعالي عبد الملك)، **كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلّة في أصول الاعتقاد**، حقّقه وعلق عليه وقدم له وفهرسه محمّد يوسف موسى وعليّ عبد المنعم عبد الحميد، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1369 هـ / 1950 م.
- الحاكم النيسابوري (محمّد عبد الله أبو عبد الله)، **المستدرک علی الصحيحین**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1411 هـ / 1990 م.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن عليّ بن محمّد)،
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد البرّ، بيروت، دار الكتاب العربي، (د. ت.).
- **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار المعرفة، 1379 هـ.
- ابن حنبل (أبو عبد الله أحمد)،
- **المسند**، مؤسّسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث، 1991.
- ابن خلدون (عبد الرحمان أبو زيد وليّ الدين)، **المقّمة**، بيروت، دار الفكر، 1419 هـ / 1998 م.
- الدارمي (أبو محمّد عبد الله بن عبد الرحمان)، **السنن**، تحقيق أحمد زمري وخالد السبع العلمي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1407 هـ.
- ابن سعد (محمّد بن منيع البصري الزهري)، **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار صادر، 1985.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان)،
- **تاريخ الخلفاء**، عني بتحقيقه إبراهيم صالح، بيروت/ دمشق، دار صادر/ دار البشائر، ط. 1، 1417 هـ / 1997 م.
- الصنعاني (أبو بكر عبد الرزّاق بن همام)، **المصنّف**، عني بتحقيق نصوصه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، 1390 هـ / 1970 م.
- الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيّوب)، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ط. 2، 1404 هـ / 1983 م.
- الطبري (أبو جعفر محمّد بن جرير)،
- **تاريخ الأمم والملوك**، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1408 هـ / 1988 م.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، بيروت، دار الفكر، 1421هـ /

2001 م.

• الطبري (محبّ الدين أبو جعفر أحمد بن عبد الله)، الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق وتعليق حمزة النشترتي وعبد الحفيظ فرغلي وعبد الحميد مصطفى، القاهرة، المكتبة القيّمة، (د. ت.).

• ابن عبد البرّ (أبو عمر يوسف النّمري)،

- الاستيعاب، (انظر ابن حجر، الإصابة).

• ابن عبد ربّه (أبو عمر أحمد بن محمّد)، العقد الفريد، شرحه وضبطه وصحّحه وعنون موضوعاته ورتّب فهرسه أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، القاهرة، مكتبة النهضة المصريّة، ط. 2، 1962.

• ابن عراق الكناني (أبو الحسن عليّ بن محمّد)، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط. 1، 1399هـ / 1979 م.

• ابن العربي (أبو بكر محمّد بن عبد الله)،

- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبيّ، حقّقه محبّ الدين الخطيب، خرّج أحاديثه محمود

مهدي الاستانبولي، بيروت، دار الجبل، (د. ت.).

• القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم بن أبي النجود.

• القرطبي (محمّد بن أحمد بن أبي بكر)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة، دار الشعب، ط. 2، 1372هـ.

• ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي)،

- البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، (د. ت.).

• ابن ماجّة (أبو عبد الله محمّد بن يزيد)، السنن، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، (د. ت.).

• الماوردي (أبو الحسن عليّ بن محمّد)،

- الأحكام السلطانيّة والولايات الدينيّة، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1405هـ / 1985 م.

• المسعودي (أبو الحسن عليّ)، مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق شارل بلا، بيروت، 1966-1979.

• ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرّم)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1956.

• النابلسي (عبد الغنيّ)، تعطير الأنام في تعبير المنام، تحقيق معروف زريق، بيروت، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط. 2، 1410هـ / 1990 م.

• ابن هشام (أبو محمّد عبد الملك)، السيرة النبويّة، وضع حواشيه وخرّج أحاديثه الشيخ فؤاد ابن عليّ حافظ، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1420هـ / 2000 م.

• اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر)، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، (د. ت.).

2. المراجع العربيّة والمعرّبة

• الجزّار (منصف)، المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، صفاقس - بيروت، دار محمّد عليّ، مؤسّسة الانتشار العربي، 2007.

• السعفي (وحيد)،

- العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ابن كثير أنموذجاً، تونس، تير الزمان، 2001.

• الشرفي (عبد المجيد)،

- الإسلام بين الرسالة والتاريخ، بيروت، دار الطليعة، 2001.
- عبد الرازق (عليّ)، الإسلام وأصول الحكم، تونس، دار الجنوب، 1996.
- عمامو (حياة)،
- "السلطة والشرعية في نظام الحكم الإسلامي المبكر"، ضمن: السلطة وهاجس الشرعية في الثقافة الإسلامية، صفاقس، دار أمل للنشر والتوزيع، 2005، ص ص 107-11.
- مسلماني (مالك)، ميلاد الدولة الإسلامية، اللاذقية، دار الحوار، 2001.
- ياسين (عبد الجواد)، السلطة في الإسلام، الدار البيضاء - بيروت، المركز الثقافي العربي، ط. 2، 2000.

3. المراجع في غير اللسان العربي

- Mingana (A.), «Syriac influence on the style of the Kuran», in Bulletin of the John Rylands Library, Manchester University Press, vol 11, n° 1, (1927), pp. 77-89.
- Rosenthal (E. I. J.), Political Thought in Medieval Islam, Cambridge, 1968.

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Orders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com